تنوع أشكال التعبير الثقافي في عصر الرقمنة [1]

تقرير اليونسكو

ترجمة: د.حمادي محمد،شعبة علم الاجتماع –كلية العلوم الاجتماعية –جامعة مستغانم

تمهيـــــد:

عرفت المجتمعات الإنسانية، بما فيها دول العالم الثالث عبر مسارها التاريخي عدة تحولات في المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية والإعلامية باستمرارها عبر الزمان والمكان،وانعكست بمجملها على أنماط معيشتها وتفكيرها مع بروز مظاهر جديدة على المستوى البنيوي والوظيفي للمؤسسات وفي مختلف العلاقات والتفاعلات الاجتماعية، مما أثار اهتمام الكثير من الباحثين والمفكرين في الحقول العلمية والمعرفية ،بهدف فهم وتحليل تحول وتطور هذه المجتمعات بفعل تأثير العديد من العوامل الداخلية والخارجية، تحت وطأة السيل الجارف للعولمة، ولعل من أبرز هذه المؤثرات هو الجانب الثقافي.

من هنا، شهدت جل المجتمعات في الآونة الأخيرة انتشار مظاهر سلوكية، كما عرفت ممارسات ثقافية جديدة كالتقنيات الحديثة للاتصال والرقمنة (الإنترنت، الفايس بوك، الهاتف الذكي، الكتابة والقراءة الإلكترونية وأفلام علم الخيال والألعاب الإلكترونية...) وأساليب تعبيرية أخرى لدى فئة الشباب على وجه الخصوص، كالموسيقى الحضرية ووسائط التواصل الاجتماعي والموضة بكل أشكالها .

ومن بين الأبحاث والنظريات التي أولت اهتمامها متميزا لهذا الموضوع الشائك الذي يتمحور حول التدفق الإعلامي، ما طرحه المفكر هربرت شيللر Herbert Scheller في مؤلفيه "الاتصال والهيمنة الثقافية " و"المتلاعبون بالعقول "، حول التضليل والهيمنة الإعلامية على دول العالم الثالث، بهدف إحداث نوع من التبعية الفكرية.

فغالبا ما تتعمد القنوات الأجنبية بشكل مباشر إلى نقل رسالة إعلامية تتكيف مع رغباتها وأهدافها، وحين تتحول المادة الإعلامية إلى سلعة تجارية، فإنها تركز على ثقافة غير ملتزمة بالقيم والأفكار والذوق، وتهدف إلى المتعة والتسلية لدى الأفراد.[2]

لقد لعبت وسائل الإعلام دورا محوريا في الترويج لهذه الأنماط الثقافية ونشرها، كنتيجة للانتشار الإعلامي والبث الفضائي المباشر، في الوقت الذي كانت فيه الثقافات دائما على اتصال وعلاقة التبادل مع بعضها البعض، لكن مع الوضع التاريخي الجديد الذي نشأ في الفترة، قامت فيها الثورات الصناعية المتتالية بتقديم آلات متخصصة فيصنع المنتجات الثقافية ووسائل البث ذات طاقة عالية لما يسمى بالبلدان "المتقدمة".[3]

بدأت هذه الدول العظمى تركز كلها على الوسائل التي تستخدم فيها خطابا إعلاميا مدروسا ومتميزا بإيصال رسائل مشفرة، عن طريق الصور والومضات الإشهارية، ليصبح المتلقي (المشاهد) عندئذ، مشدوها ومبهورا أمام هذه التقنيات المتطورة والمذهلة (المترجم).

ظهرت الثورة الرقمية محدثة بذلك تغيرا عميقا وجوهريا في أنماط الإنتاج وتوزيع السلع والخدمات الثقافية، وكذا أساليب وطرق الاستفادة منها. في الواقع، فإن التوسع المتسارع للشبكات الاجتماعية ولمحتوى المنتجات التي تم استغلالها من قبل المستخدمين ،قد حدث على مستوى العدد الهائل من البيانات التي تم إنشاؤها بواسطة الإعلام الآلي وانتشار أجهزة الوسائط متعددة الاتصال – كالهواتف الذكية، والأقراص، – و(أجهزة tablettes, phablettes, liseuses)، التي كان لها تأثير بالغ على المشهد الثقافي في بلدان الشمال كما في الجنوب، حيث أدت التطورات التكنولوجية إلى بروز فاعلين جدد ومنطق جديد في التعامل معها.

عندئذ، فمن الأهمية بما كان ملاحظة أن معظم هذه التحولات جرت خلال العشر سنوات الماضية، أي بعد المصادقة على اتفاقية اليونسكو بشأن حماية وترقية تنوع أشكال التعبير الثقافي. في هذا السياق، وخلال عام 2013 ،اعترفت الأطراف المشاركة في المؤتمر على أهمية دراسة تأثير الرقمنة على التنوع في أشكال التعبير الثقافي، بكون أن العوامل التي تدخل في الحسبان متعددة، وهناك العديد من مصادر المعلومات متوفرة حول هذا الموضوع، ومع ذلك، فإن التقارير المرحلية المقدمة من لدن الأطراف المشاركة بين عامي 2012 و2014 تشكل نقطة انطلاق جديدة لتقييم الفرص والتحديات تجاه الرقمنة، كما قدمت مجموعة من التدابير الملموسة التي اتخذتها البلدان المعنية. يوجد في التقارير، ما يشير إلى مجموعة من مكونات النظام الرقمي– بطريقة مباشرة أو غير مباشرة – يتم تجميعها حسب مختلف المواضيع التي تشملها الاتفاقية، ولاسيما:

1–الحصول على أشكال التعبير الثقافي .

2–الإبداع .

3–الصناعات الثقافية.

4–مشاركة المجتمع المدني .

5–جمع الإحصاءات الثقافية .

إن المعلومات التي نظمت وفقا للمواضيع الرئيسية الخمسة السابقة، تم جمعها في تقارير الأطراف المشاركة، مرفقة بدراسة حول البيانات والاتجاهات الحديثة، قامت بتقديم لمحة عامة عن التأثير الذي تحدثه التكنولوجيات الرقمية على تنوع أشكال التعبير الثقافي.

ومن هنا، يعتبر عصر الرقمنة فرصة سانحة من حيث استخدام الوسائل الحديثة، ففي الواقع، وبفضل التكنولوجيات الجديدة، يمكن للجمهور الاستمتاع بالعروض الثقافية بأكثر سهولة، وبطريقة أسرع وتكلفة أقل، هذه التطورات "الديمقراطية"، مكنت من السماح للمزيد من الجمهور الحصول على المنتجات

والخدمات الثقافية. فيمكن للابتكارات أن تكون رقمية مفيدة بشكل خاص للأشخاص الذين ينتمون إلى الأقليات، بالإضافة إلى دورها في الحد من الفجوة الرقمية التي قد تفصل بين سكان الحضر والريف، بكون أن الوضع الثقافي الحالي هو أكثر أهمية من أي وقت مضى.

وبالمثل، فقد أدت الإمكانيات التكنولوجية الجديدة ليس فقط إلى الزيادة في استهلاك المحتويات الرقمية، ولكن أيضا إلى انفجار الطاقات الإبداعية وظهور أشكال جديدة من الإنتاج الثقافي، نظرا لأن التقنيات الرقمية لديها اتجاه واضح في إزالة الحواجز الجغرافية والاجتماعية لهذه الإمكانيات الإبداعية، على الأقل من الناحية النظرية، إضافة إلى ذلك ، يمكن أن يكون العصر الرقمي فرصة سانحة لتطوير الصناعات الثقافية. كما ازدادت، إضافة إلى ذلك، الفوائد التنافسية الرئيسية، وفتحت أسواق جديدة، وأصبح التوزيع أكثر فعالية وتحسنت طرق التواصل المباشر مع الشركاء من خلال الشبكات الاجتماعية، عن طريق ظهور وتوسع نماذج تجارية جديدة وفعالة.

لقد شكلت التكنولوجيات الجديدة أيضا تقدما من حيث توعية ومشاركة المجتمع المدني، ففي الواقع، وبفضل الشبكات الاجتماعية، يمكن للقطاع العام بث أنشطة ثقافية مختلفة على نطاق واسع، والمجتمع المدني، من جانبه، يجد في هذه الشبكات أداة قوية ذات مشاركة فعالة وعفوية.من الميزات ذات الأهمية كذلك، يمكن للتكنولوجيات الجديدة أن تصبح مفيدة بغرض جمع الإحصاءات والمعلومات، وتحاليل مبنية على بيانات كبرى، بغية تقديم وفتح آفاق جديدة للتنوع في هذه الأشكال التعبيرية للثقافة.

العقبات أمام استخدام الرقمنة:

هناك العديد من العقبات التي لا تزال تحول دون الاستفادة الكاملة من الإمكانيات والفرص المتاحة والمذكورة آنفا. بداية، هناك مناطق متعددة في العالم تفتقر إلى هياكل تحتية كافية (سواء من حيث الأجهزة أو الاتصال) والمستخدمين / المستهلكين لا يملكون ولا يحسنون استعمال الأدوات الرقمية الكافية، من هنا، فإنه لا يمكن الاستفادة من مزايا الرقمنة، حتى وإن أصبحت هذه الأدوات سهلة من حيث الاستخدام. كما تجدر الإشارة إلى أن بعض المصممين اليوم ليست لديهم الخبرة الفنية المطلوبة. وعلاوة على ذلك، فإن الآثار القانونية للريمكس remix[4]وتقنيات مشابهة ليست دائما واضحة بما فيه الكفاية عند الفنانين ذوي الخبرة المحدودة.فعدم توفر المهارات اللازمة لإنتاج المحتوى الرقمي عالي الجودة يؤثر أيضا على الشركات. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تكييف قطاعات كاملة – مثل التلفزيون أو السينما – للمعايير الجديدة يمكن أن تكون معقدة جدا أو من الصعب القيام بها، بكون أن الصناعات لديها أيضا القليل من الاتصال مع شبكة الإنترنت، مما يصعب من مهمة استكشاف نماذج جديدة.

وفيما يتعلق بمشاركة المجتمع المدني، فإن الأجيال السابقة أقل استخداما في كثير من الأحيان للشبكات الاجتماعية، وهذا مما لا شك فيه يشكل عائقا وصعوبة أمام تكيفها واندماجها الكامل مع هذه التقنيات.

ومن ناحية أخرى، أصبح العصر الرقمي لا يشكل مصدرا للعقبات فقط، ولكن لديه مخاطر جديدة تحدق به. منها الأرضيات الإلكترونية الرئيسية التي برزت في عدد قليل من البلدان، والتي قد تؤدي إلى سيطرة محتوياتها المنشورة باللغة الإنجليزية، على سبيل المثال، وذلك على حساب محتويات اللغات المحلية.

وفيما يتعلق بإمكانية استعمال الإنترنت، فمن الجدير بالذكر أيضا أنه على الرغم من وجود القدرة للحد من الفجوة بين سكان الحضر والريف ودمج الأشخاص الذين ينتمون إلى الأقليات، يمكن للتكنولوجيات الجديدة أيضا أن يكون لها تأثير عكسي: من حيث بروز التفاوت بين الفئات الأكثر غنى– التي تمتلك معدات مجهزة وأجهزة الإنترنت أكثر تطورا – مقابل الفئات الأكثر حرمانا. والواقع أن كثيرا من مبادرات نقل التكنولوجيا تستند فقط على توفير المعدات والتي بإمكانها أن تزيد من حدة اللامساواة القائمة بين هذه الفئات الاجتماعية.

في مجال الإبداع، يمكن أن نذكر المشكل المتعلق بالفنانين اليوم المتمثل في نقص الحوافز المادية.إلى جانب وجود استراتيجيات للحفاظ على الإبداعات الثقافية الحالية: قليل من البلدان التي لديها نظام الإيداع القانوني الإلكتروني، وفي سياق كهذا، فإن تنوع أشكال التعبير الثقافي قد يهددها خطر الزوال نتيجة لعدم الحفاظ عليها.

يمكن للرقمنة المتزايدة أن تتسبب في اختفاء العديد من المؤسسات التقليدية المكلفة بالتوزيع الثقافي ونشره (المكتبات، على سبيل المثال). وبالإضافة إلى ذلك، فإن الموزعين الجدد يملكون بواسطة الإنترنت سلطة أكبر بكثير من الشركات الصغرى والمتوسطة من ناحية المنظور القانوني والجبائي، وهذا قد منحهم ميزة تنافسية مفرطة.

الإجراءات المتخذة:

تم اتخاذ العديد من التدابير للتغلب على الحواجز وتخفيف الأخطار المرتبطة بالرقمنة. على مستوى الكثير من بلدان الشمال والجنوب، وتتمثل خصوصا في التزايد المستمر لنسبة الاستثمارات في مجال البنية التحتية للاتصالات، وخاصة في المناطق الريفية، مثلما تظهره الكثير من التقارير الدورية، وعشرات من البلدان أدمجت الأدوات الرقمية في وسائل إعلامها العمومية والمعدات المقدمة إلى المدارس والمتاحف والمكتبات والمراكز الثقافية . وعادة ما يتم ضم هذه المبادرات إلى برامج وطنية مكرسة لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات. ففي مجال الإبداع، بادرت بعض الدول بمنح الجوائز التشجيعية مقابل إنشاء مراكز الإبداع الرقمي، ولتوفير التكوين التقني ورعاية البرامج الفنية ،بالإضافة إلى ظهور مجموعة من السياسات موجهة للدعم الواسع للغاية في مجال الصناعات الثقافية، وخاصة مشاريع الرقمنة والتحديث في ميادين النشر، والموسيقى والسينما.

بالإضافة إلى كل ذلك، تستخدم التكنولوجيات الجديدة بهدف تشجيع مشاركة المجتمع المدني، بعدة طرق: الشبكات الاجتماعية والهواتف النقالة والرسائل النصية للتواصل حول مواضيع مختلفة تتعلق

بالثقافة؛ وبالمنابر والمنتديات والمناقشات عبر الإنترنت، وكذا النشرات الإخبارية والتعاون النشط مع العديد من المنظمات الاجتماعية المشاركة في مجال الفن الرقمي.

وأخيرا، فيما يتعلق بالإحصاءات في المجال الثقافي، فإن التقارير تحتوي على القليل من المعلومات عن المنتجات الاستهلاكية الرقمية، ولكن من المهم أن نلاحظ أن العديد من البلدان تعتمد بالفعل على استعمال الخرائط الخاصة بالثقافة الرقمية المحلية.

تنوع التعبير الثقافي في العصر الرقمي :

بالنسبة لتنوع أشكال التعبير الثقافي، فإن الرقمنة هي ظاهرة غير عادية وثرية، لكن مع ذلك قد تواجه بعض التحديات والتهديدات. في هذا السياق، يبدو أن التكنولوجيا الرقمية في حد ذاتها ليس لها أي تأثير على تنوع أشكال التعبير الثقافي. في الواقع، فإن الإجراءات والمخططات المحددة من طرف الحكومات والشركات ومنظمات المجتمع المدني والأفراد، مع التكنولوجيات الجديدة، يمكن أن يكون لها تأثير إيجابي أو سلبي، حول المشهد الثقافي الفعلي. في الواقع، إن التكنولوجيات الجديدة هي الآن في قلب الحياة الثقافية، وكما رأينا في التقارير الدورية وغيرها من المصادر، فإن الكثير من البلدان قامت بالفعل بتطبيق مجموعة من التدابير لا تعد ولا تحصى.

الغرض، إذا، لا يكمن في طريقة تكييف الاتفاقية مع التطورات الرقمية، بل بالعكس من ذلك: كيف يتم تكييف السياسات الرقمية مع الاتفاقية؟ ما هي المشاريع التي بإمكانها الإسهام في كتابة السيناريو على المدى الطويل الذي يتميز بتنوع المحتوى، والمتعلق بالممثلين والجمهور على حد سواء؟ قبل أخذ أية مبادرة بشأن التحكم في الرقمنة، يجب علينا، في نهاية المطاف، أن نتساءل: في خضم هذه التحولات، هل أخذت بعين الاعتبار مبادئ وأهداف الاتفاقية التي تم اعتمادها والصادقة عليها ؟

خاتمة:

هذا السؤال الجوهري يطرح نفسه وسيظل مسايرا للأحداث، في زمن أصبحت فيه الهيمنة والنفوذ والتسارع على امتلاك تكنولوجيا الرقمنة المتطورة بين القوى الكبرى بغرض بسط السيطرة وفرض الهيمنة هي سيدة الموقف، والتي أضحت تمثل سمة من سمات العصر الحديث و مظهرا من مظاهر العولمة بأشكالها المتعددة والمتزايدة وامتداداتها عبر الزمان والمكان

الهوامش:

(1) مناقشات بشأن تنفيذ اتفاقية عام 2005 بشأن حماية وتعزيز تنوع أشكال التعبير الثقافي ،بمناسبة الاحتفال بالذكرى ال10 لاتفاقية عام 2005

– مقر اليونسكو ،باريس، 9يونيو 2015

La diversité des expressions culturelles à l'ère numérique

Célébration du 10e anniversaire de la Convention de 2005

(2) رحيمة الطيب عيساني:العولمة الإعلامية وآثارها على مشاهدي الفضاءات الأجنبية ،عالم الكتب الحديث ،الأردن ،2010 ،ص114.

(3) Jean Pierre Warnier :La mondialisation de la culture,Casbah Editions,Alger,1999.

Editions La Découverte et Syros,Paris ,1999,p.15.

(4) Remix:تقنيةموسيقيةتقتضي إعادة العملبمنتوج فنيمسجل،منأجلإنتاجنسخةأخرى .

http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/remix/68019